الاســـــترجاع فــــي روايـــــــة (مـــن مكـــــة إلـــى هنا) للكاتب الليبـــــي الصــــــادق النيــــــهوم

أ. أحمد الفاتح إبراهيم أحمـد ـ كلية التربية الشاطئ ـ جامعة سبها

الملخص:

يتناول هذا البحث تقنية الاسترجاع في روايـــــة : من مكة إلى هنا للكاتب الصادق النيهوم ، حيث تمت دراســـــة الاسترجاع في هذه الرواية من خـــلال تحديد موضعه ، وما حفّـــز إليه ، والدور الذي يؤديه في الرواية

ويرجـــع سبب اختيار هذه الرواية موضوعا للدراسة إلى احتوائها على كثير من الاسترجاعات بمختلف أنواعها، حيث استطاع الكاتب بخبرته توظيفها في روايته .

وقدم البحث الاسترجاعات في الرواية كل حسب نوعه مع تحليل لكل منها بغية الوقوف على ما يؤديه الاسترجاع في موضعه من دور في هذه الرواية .

ويبـــرز في هذا البحث :

أ ـ الاسترجاعات الخارجية في الرواية .

ب ـ الاسترجاعات الداخلية في الرواية .

جـ ـ الاسترجاعات المزجية في الرواية .

التمهيـــد :

تقنيـــة الزمن في الرواية تعد عنصرا من العناصـــــر التي لا يمكن تجاهلها أو الاستغناء عنها في البناء الروائي، فهي كالمكان والشخصية " فهذه العناصر الثلاثة كل متكامل ومتلاحم في العمل الروائي " (1) ينتج من خلال تفاعلها مع بعضها ما يعرف بالحدث في القصة .

وتقنية الاسترجاع ذات علاقة وثيقة ببناء الرواية ؛ لأننا نجد في الحكاية الأولى أحداثاً قد وقعت في ذات الوقت في أماكن مختلفة وهو ما يدفع كاتب القصة أثناء عملية تحويل القصة إلى خطاب ســـردي إلى تقديم هذه الأحداث على شكل استحضار للماضي من أجـــل سد ثغرة في القصة أو التعريف بماضي إحدى الشخصيات وغيره ليشكل الـــراوي بذلك زمنا سردياً خاصاً بروايته ، حيث يقدّم في الأحداث ويؤخـــر من أجل الوقوف على مختلف أحداث القصة الماضية حتى تكتمل الصورة في الرواية .

الاســـــترجـــاع :

تقدم رواية (من مكة إلى هنا) أحداثاً وقعت في مـــدّة زمنية تظهر ملامحها من خـــلال التمعن في القراءة ، حيث ينطلق الســـرد من أحداث متقدمة في القصة، ثم يتوقف ليعود إلى الوراء من أجل سرد ما كان من وقائع في الماضي تسد ثغرات في الخطاب السردي .

وتستمر الرواية على حفظ النســق من التقديم والتأخير في أحداثها ليتبين في نهاية المطاف أن أحداثها قد وقعت في مدة زمنية تقدر باثنين وثلاثين يوما وليلة، تبدأ بالليلة الأولى التي غرق فيها أحد أبناء الصيادين، وتنتهي بالليلة الأخيرة التي طُعن فيها الفقـــي .

وقد جاء تقدير هذه المدة بقياس زمن بعض الأحداث في الرواية، وهي كالآتي :

أولها: أحداث تذكر الزنجي ما وقع في الشهر الماضي من وقائع قصة غرق الصبي.

ثانيها: الأحداث التي وقعت في زمن الرواية الحاضر منذ عصر اليوم الثاني وحتى اقتراب مساء اليوم الذي يليه .

ثالثها: أحداث الليلة التي طُعن فيها الفقي .

رابعها: الأحداث المتتالية التي وقعت في زمن الرواية الحاضر منذ قُبيل المساء إلى عصر اليوم التالي.

فأحداث الرواية تبدأ في اليوم الأول الذي حضر فيه الزنجي للمطعم الإيطالي قبيل المساء وما جـــرى خلال هذا الزمن من حوار في المطعم ، ثم في مساء ذات اليوم تنتقل الأحداث إلى مشهد الزنجي في البحر، وبعدها أحداث الحوار بين الزنجي وامرأته في بيتهما ليلاً، ثم أول النهار وما دار فيه من حوار بين مسعود الزنجي والفقي لينتقل بعدها الزنجي إلى البحر الذي يستغرق فيه وقته مع الصيادين حتى العصر.

وتبدأ أحداث اليوم الثاني من بعد العصر بأحداث وقعت في قارب الزنجي أثناء عودته إلى بيته ومبيته ليلته فيه ثم صراعه في الصباح الباكر مع العاصفة من أجل سلحفاته وبيعها بعد ذلك ، ثم ما جرى للزنجي في المطعم وقت نهاية الضحى ، وما جرى بعدها لينتهي اليوم الثاني باقتراب المساء .

أما أحداث الليلة الأخيرة فإنهاء تبدأ بوقت تواجد مسعود في قاربه مساءً وما جرى فيه من أحداث ، ثم أحداث المقهى وما دار فيه من حوار بين الصيادين حتى صلاة العشاء. وتبدأ بعدها قصة طعن الفقي في ظهره من بعد منصف الليل لتنتهي بذلك أحداث الرواية .

ويضاف إلى أحداث هذين اليومين والليلة قصة غرق الصبي التي جرت أحداثها من شهر مضى على أحداث الرواية في الزمن الحاضر ولذلك يكون المجموع الكلي لأحداث الرواية هو اثنين وثلاثين يوما وليلة .

فكان لاستخدام تقنية الاسترجاع المتواترة في الرواية ـ والتي بلغ عددها تسعا وعشرين استرجاعاً ـ دور في امتداد هذا الزمن واتساعه. وقد جاءت هذه الاسترجاعات على النحو التالي :

أولاً ـ الاسترجاعات الخارجيـــــة : وهي الاسترجاعات التي تفيد الكاتب في تغطية فراغات زمنية تساعد على فهم مسار الأحداث وتكون سعتها خارج زمن الحكاية الأولى" لا توشك في أي لحظة أن تدخل مع الحكاية؛ لأن وظيفتها الوحيدة هي إكمال الحكاية الأولى عن طريق تنوير القارئ بخصوص هذه السابقة أو تلك" [2] .

وقد ورد في الرواية ثلاثة استرجاعات من هذا النوع كانت على النحو الآتي :

كان الاسترجاع الأول بلسان الراوي المستبطن لشخصية مسعود الزنجـــي الذي تحدث فيه عن زواج مسعود في المرة الأولى من امرأة بيضاء فيقول: " كان قد تزوج امرأة بيضاء في المرة الأولى ، وكانت أذناها مهدلتين – أيضاً- ولكنه نسي ذلك بمرور الزمن، ونسي أنه قال لها قبل أن يطلقها إنها لا تساوي عنده ظفر امرأة زنجية "[3] , جاء هذا الاسترجاع بذاكرة الراوي انسيابياً بعد حديثه عن ما ظهر في العتمة لمسعود الزنجي من ملامح امرأته حيث بياض عينيها وأنفها الأفطس الذي يبدو من أسفله مثل رطبة مثقوبة، وأذنيها المهدلتين إلى حد لا يحتمل ، وتساؤل الزنجي عن عدم طلاقها والزواج من امرأة بيضاء.[4] وهو ما حفز ذاكرة الراوي إلى تذكر بعض من قصة زواج الزنجي من امرأة بيضاء في الزمن الماضي.

يقدم هذا الاسترجاع بعضاً من ملامح وجه امرأة الزنجي وأثـــر وقع هذه الملامح في نفسه ونظرته الساخرة إليها ، إضافة إلى ما تمثله هذه المرأة للزنجي حتى أنه يتساءل في نفسه عن السبب الذي يجعله متمسكاً بها ولم يطلقها ليتـــزوج من امرأة بيضاء .

كما يقدم الاسترجاع صـــورة عن حالة عدم الاستقرار النفسي التي يعيشها الزنجي فهو يريد المرأة البيضاء إلا أن بياضها يبدو أنه يشعره بترفعها عليه حتى أنه قال لها قبل أن يطلقها إنها لا تساوي عنده ظفر امرأة زنجية ، ويريد المرأة السوداء إلا أنه ينفر من ملامح وجهها .

جاء هذا الاسترجاع بعيدا في مداه الزمني قصيراً في سعته النصية التي لم تتجاوز ثلاثة أسطر ، وأفاد في تنوير القارئ بخصوص هذه السابقة .

أما الاسترجاع الثاني فإنه عندما كان الزنجي في انتظار رئيس جمعية أصحاب القوارب لكي يودع لديه فرنكاته الثلاثة بمثابة دفعة أولى لثمن قارب إضافي تذكر الراوي بدايات حياة الزنجي في مجال الصيد فيقول: " وكان ينتظره في الميعاد بالضبط قادما لتوه من رحلته الهائلة الموغلة في القدم التي بدأت ذات يوم عندما وضع قدمه في قارب أحد الصيادين وأبحر معه إلى حيث لا يدري مقابل رطلين من السمك في الأسبوع .."[5] .

يقدم هذا الاسترجاع صورة معبرة عن مدى ما لقيه الزنجي خلال رحلة حياته مع مهنة الصيد التي وصفها الراوي بالهائلة الموغلة بالقدم . كما يقدم لمحة مختصرة عن بدايات عمل الزنجي وأجره الزهيد الذي بلغ رطلين في الأسبوع إضافة إلى دخوله إلى هذا العالم المجهول الذي بدأه من الصفر ليصل به بعد كل ذلك إلى سعيه لشراء قارب إضافي . وفي هذا إشارة إلى جلد الزنجي وصبره وكفاحه الطويل وهو ما كان له أكبر أثر إلى تحفيز ذاكرة الراوي باستذكار هذه الرحلة القديمة لحياة هذا الصياد .

فكان هذا الاسترجاع قديماً بعيداً في مداه، ولكنه قصير في سعته ؛ إذ لم يتجاوز في كتابته الأربعة أسطر من الرواية ولعل هذا مرده إلى اعتماد الراوي على الوصف باستخدام مفردات مختصرة تحمل في طياتها كثيراً من المعاني والصور المعبرة التي أسهمت في التعريف بتاريخ هذه الشخصية وفهم مسار الأحداث في الرواية .

وفي الاسترجاع الأخير يقول الراوي : " كان قد قراءها لأول مرة عندما كان يعمل بالأجر على قارب صياد عجوز في بنغازي ، وكان العجوز قد زعم أن المنطقة التي اضطر إلى قضاء الليل فيها مسكونة .. وأن الشـــبح قد تعود على أن يظهر على سطح الماء ويشرع في العويل .. ثم قرأ مقدمة الآيات بصوت مرتجف .. لكنه لم يكن يحفظها كلها، وكان الزنجي قد قرأها له آن ذلك لمجرد الرغبة في أن يترك لديه انطباعاً مؤثراً "[6] .

جاء هذا الاسترجاع عقب حديث الراوي عن شعور الزنجي بالخوف الذي غلب عليه وهو وحيد في قاربه في البحر حيث فجأة وضع رأسه بين ذراعيه وأغمض عينيه وانطلق يقرأ آية الكرسي بصوت عال ، وهو ما دفع بالراوي إلى التنبه إلى أن الزنجي لم يفعل ذلك إلا مرة واحدة خلال رحلات صيده كلها . وهو ما حفز ذاكرته إلى الرجوع إلى الماضي البعيد واسترجاع أحداث هذه القصة .

يسلط هذا الاسترجاع الضوء على بعض من تاريخ شخصية الزنجي في الماضي ويعكس في ذات الوقت حالة الضعف التي آلت إليها حاله حيث أنه قد قرأ الآيـــة رغم عدم حفظها كلها رغبة منه في التأثير على الرجل العجوز فقط بخلاف هذه المرة التي

قرأها من شدة خوفه ، إضافة إلى ما يقدمه الاسترجاع من أثر الخرافة في هذا المجتمع واعتقاد الزنجي وإيمانه الحقيقي الماثل في أعماقه منذ القدم بالرغم من تقصيره في تطبيق تعاليم دينه بحسب أحداث الرواية .

بلغ اتساع هذا الاسترجاع حوالي سبعة أسطر، أما مداه فإنه يعود إلى زمن ما قبل الرواية قدم من خلاله الراوي صورة مقارنة بين شباب الزنجي وشيخوخته .

ثانيا- الاسترجاعات الداخليـــــة: عندما يتزامن وقوع أحداث في القصة مع أحداث أخرى فإن الكاتب يلجأ إلى استخدام تقنية الاسترجاع الداخلي وهي "الاستعادات التي يُعمد إليها في القصة لغرض رواية أحداث تزامنت في وقوعها مع أحداث أخرى من القصة "[7]. حيث تساعد هذه التقنية في الوقوف على كل الأحداث التي جرت ضمن الحكاية الأولى , والتي يقدمها الراوي بحسب رؤيته الخاصة .

ويميز جينيت الاسترجاعات الداخلية إلى فئتين هما : التكرارية والتكميلية .

أ- التكراريـــــــة: وهي استرجاعات داخلية تعود إلى عدة أجزاء متشابهة من زمن الرواية المنقضي يتلفت فيها السارد إلى العديد من الأحداث المتشابهة والمتكررة نوعاً ما، وهي تفيد في المقارنة بين وضعين متشابهين ومتباينين في آن واحد, وتتصف بضعف اتساعها السردي غالباً([8]).

وقد ورد في الرواية استرجاع واحد من هذا النوع تحدث فيه الراوي عن حلم مسعود المتكرر بالصبي الذي مات غرقاً منذ حوالي شهر مضى يقول الراوي :" وكان الزنجي قد حلم بالصبي بضع مرات منذ حادثة السلحفاة، وكان قد رآه أول الأمر يخرج على حين غرة من منطقة الكهوف ويتسلق صخور الجزيرة متجهاً إلى طرف اللسان البحري .. ثم رآه بعد ذلك في مرات متفرقة يذرع جانب الجزيرة الشرقي مطرق الرأس واقترب منه ذات ليلة معتقداً أنه تخلف عن اللحاق بالقوارب وقال له فيما كان يحلم

ـــ منصور .. هل تريدني أن أحملك معي .. إن جميع القوارب قد عادت إلى القرية..

ولكن الصبي لم يلتفت اليه .. لقد أدار له ظهره وابتعد مطرق الرأس في اتجاه وسط الجزيرة ، وعندما رآه الزنجي في الليلة التالية كان يغالب الأمواج وحده منطلقاً في اتجاه القرية، وكان أحد الأقراش يسبح في أعقابه على وجه الماء ويهاجمه مدفوعاً بجوعه الأعمى .. ثم يرد فجأة إلى الوراء ويواصل الدوران حوله .. وقد لفت سلوك القرش نظر الزنجي وظل يراقبه فاغراً فمه "([9]) .

وعندما خرج مسعود في الصباح من بيته قاصداً مقهى الصيادين التفت خلسة إلى الحاجز الصخري الذي ظهر الصبي فوقه أثناء حلمه به في ليلته الماضية فكان ذلك

حافزاً إلى تذكر الراوي أحلام مسعود المتكـرّرة فيما مضى بالصبي لبيان أثر ذلك على نفسه ومقدار ما يعانيه هذا الرجل في منامه .

لقد جاءت هذه الأحلام متشابهة أحياناً ومختلفة في أحيان أخرى إلا أن جلّها يدور حول معاناة الصبي الغريق ولعل في هذا إشارة إلى ندم الزنجي على عدم استخراجه جثة الصبي التي كان بإمكانه ذلك وشعوره بالخوف من لمسها في ذلك الوقت . كان الاسترجاع قريباً في مداه بحيث لم يتجاوز الشهر وهي المدة التي مضت على غرق الصبي، أما اتساعه فإنه يقدر بحوالي صفحة واحدة من صفحات الرواية؛ لأن الأحلام التي تحدث عنها الراوي اتصفت بضعف اتساعها السردي وتقديمها بصورة موجزة .

ب ـ التكميليـــــة: وهي الاسترجاعات التي تأتي لتسد فجوة سابقة في الحكاية ثم حذفها أو إسقاطها في مرحلة من مراحل الحكاية كسرد بعض الأحداث التي تعوض جزئياً عن بعض من مراحل حياة الشخصية، أو التعريف بسوابق شخصية غابت عن الأنظار منذ وقت .[10]

وقد اشتملت رواية (من مكـــــة إلى هنا) على خمسة عشر استرجاعاً تكميليا، وكان أولها الاسترجاع الذي يتحدث فيه الراوي عن قصة غـــرق الصبي التي تذكرها الزنجي عقب حديثه مع الفقي عن تحريم صيد السلاحف ومصير من يفعل ذلك يقول الراوي : " وكان الزنجي قد تذكر ما حدث في الشهر الماضي .. وكان أحد أبناء الصيادين خرج وحده ليحضر والده الذي قضى الليلة فوق الجزيرة في حراسة خيوطه المعدة لصيد كلاب البحر، ووجد الصبي ثلاث سلاحف طافية على وجه المياه العميقة في شرق الجزيرة وطاردها بمحركه البخاري ثم قلب إحداها على ظهرها فيما كانت تحاول أن تغوص ضد التيار .. وكان والد الصبي يراقب هذه اللعبة المفاجأة من الشاطئ المقابل , وقد خيل إليه أول الأمر أن السلحفاة تمكنت من الغوص وراء القارب ثم رأها مقلوبة على ظهرها عبر الانعكاس الشمسي المتوهج على سطح المياه .. ورأى القارب يستدير مرة أخرى لكي يبحر بجانبها .. ولكنه لم يستطع أن يرى ابنه في وهج المواشير الضوئية الحارقة، وقد عاد فوضع يده على حافة عينيه وحدق في الفضاء الخارجي محتملاً ألماً حاداً ثم انطلق يجـــري فجأة في اتجاه اللسان البحري الممتد على طول منطقة الصخور ..

كان يعرف أن الصبي قد استدار بقاربه لكي يقطر السلحفاة وراءه وكان يريد أن يدركه قبل أن يقترب من الرف الصخري الضحل وقد انطلق يجري بأقصى سرعته في

اتجاه اللسان الممتد على بعد نصف ميل إلى الشرق ملوحاً بيده في الهواء .. وعندما استدار عبر انحناءة اللسان نفسه توقف فجأة وصرخ بأعلى صوته

ـ ابتعد عن الصخور .. لا تدعها تلمس الأجراف .. دعها وشأنها يا ابن الزنا .

وكان الصبي قد لاح خلال برهة قصيرة عبر انعكاس الشمس ثم اختفى مرة أخرى فيما كان صوت محركه ينمو باطراد على طول الرف الصخري وصرخ والده لآخـــر مرة :

ـ ابتعد عن الأجراف .. عد إلى المياه العميقة .. ثم استدار عند حافة اللسان وتوقف مصعوقاً فوق المنحدر الصخري المغمور في المياه .. وكان القارب قد بدأ يترنح فجأة حتى مال على جانبه فيما ظهرت السلحفاة وراءه وهي تجاهد لكي تستعيد توازنها بعد أن غرست عنقها في حافة الجرف الناتئ .. وانزلق القارب على جانبه تحت وطأة الضغط المفاجئ .. وأصدر المحرك ازيزاً عالياً في الهواء عندما قفز الصبي إلى الدفة محاولا أن يستعمل مجدافه في إبعاد القارب عن الجرف الناتئ .. وفي اللحظة التالية ترنح القارب مرة أخـــرى وانحشر جسد الوحش المربوط من عنقه في مروحة المحرك .. ثم انكفأ القارب فجأة وهوى الصبي على الجرف فيما كانت السلحفاة تستعيد توازنها فوقه مباشرة .. وفتح الصبي عينيه .. ورأى الكهف العظيم النتن الرائحة ينطـــبق على غير هدى في كل اتجاه .. ثم أحس به ينهش عنقه في لمسة خاطفة خالية من الألم .. ولمّ يديه مغمض العينين وأحتضنه في هدوء ..

وعندما عاد والده في المساء كان الخبر قد انتشر في القرية بأســـرها .. وكان أحد قد زعم أن السلحفاة حملت جثة الصبي إلى منطقة المياه العميقة ، وأن والده لم يستطع أن يعثر عليه، لكن الصياد الذي ظل يبحث عن الجثة طوال النهار قال بعد ذلك: إن التيار جرفها إلى منطقة الكهوف .. وإنه رأها بنفسه تنزلق في اتجاه حافة الجزيرة الشرقية وسوف يصبح بوسعه أن ينتشلها في اليوم التالي عندما تتحسن الرؤية في منطقة الأعشاب .. وقد أقيم مأتم الغلام طوال الليل .. وتجمعت نساء القرية في الساحة الرملية المواجهة للخليج وأصررن على أن يقمن المأتم في العراء حتى يعثر الصيادين على الجثة .. فيما تبرع فقي القرية بالذهاب إلى الجزيرة لكي يعمل على إطلاق سراح الصبي من أسياد البحر ..

وقد تذكّر الزنجي فيما كان يجلس في قاربه المربوط وراء المدخل صراخ النساء في الساحة الرملية.. وتذكر كتب الفقي الجلدية الأغلفة التي جلبها معه إلى الجزيرة .. ورائحة ((**البوكبير**)) المحترق في نار التفن المتيبس .. "[11])

يُظهر هذا الاسترجاع بعضاً من عادات الصيد وطرقه في هذه القرية ، ويبين أثر المكان على كل من ابن الصياد ووالده من خلال حركة الصبي في المياه وتأثير ذلك على قاربه وما نتج عنه في النهاية وأثره على الصياد من خلال انعكاس وهج الشمس على نظره وأثر ما كان يحدث لابنه في القارب عليه حتى أنه يصف ابنه في لحظة ربكته (**بابن الزنا**) ولعل في هذا إشارة إلى المستوى الخلقي لدى أفراد هذا المجتمع حيث يظهر هذا في أسلوب مسعود الزنجي في العديد من مواقفه في الرواية، ويضاف إلى ذلك ظهور تضاريس المكان ومكوناته من خلال حركة الشخصيات فيه . كما يقدم الاسترجاع صورة إنسانية تكمن في تعاضد نساء القرية وإصرارهن على إقامة المأتم في العراء تحفيزاً ودفعاً للصيادين على استخراج جثة الصبي , ويعكس في ذات الوقت حالة هذا المجتمع الثقافية والدينية واعتقاده بأفعال الدجال (**الفقـــي**) الذي قدم عمله لأهل قريته (**تبرعاً**) وفي هذا دلالة على بساطة هذا المجتمع الذي غلبت فيه الخرافة على الدين , ومكر الفقي الذي يجعل من الدين وسيلة تصنع له مكانة وقدراً بين الناس

ويبدو صوت الراوي المستبطن لدواخل الشخصية والمتتبع بعينيه لكل ما يدور من أحداث من خلال حديثه عمّا كان يشعر به الصبي أثناء لحظاته الأخيرة من (انطباق الكهف عليه على غير هدى في كل اتجاه وإحساسه به ينهش عنقه في لمسة خاطفة خالية من الألم).

وينقطع الاسترجاع بحوار مسعود الزنجي مع نفسه وعقابه إياها على عدم استخراجه جثة الصبي التي كان بإمكانه أن يستخرجها من المياه العميقة ليعود بعد ذلك إلى تذكر ما نتـــــج بسبب فعله هذا الذي أوصله إلى وصف نفسه بأنه مجرد عبد على أية حال خاف أن يلمس جثة الصبي الغريق . يقول الراوي:" وكان الصيادون قد قضوا ثلاثة أيام كاملة في البحث عن الجثة داخل منطقة الكهوف .. وكان الفقي قد عمل طوال اليوم الأول فوق الرف الصخري الممتد على جانب اللسان وقــرأ إلى نهاية سورة السجدة ثم عاد إلى القوارب وأخبر الصيادين أن الجثة ما تزال في منطقة المياه العميقة ولكن والد الصبي أصر على مواصلة البحث في الكهوف وزعم أنه رأى الجثة للمرة الثانية تقترب من الحافة على يمن الجرف الناتئ ثم زعم اثنان من الصيادين أنهما لمحا قميص الصبي بين الأعشاب .. وعندما غاص الزنجي في المنطقة وأخرج قطعة القماش البيضاء قال له الفقي : هذا ليس قميصه .. ماذا دهاك يا مسعود ؟ .. إن الصبي ما يزال في منطقة المياه العميقة وما يزال مكتوف اليدين في كهف سيدته الجريحة ..

وفي اليوم التالي كانت الرياح الخريفية الباردة ما تزال تحمل إلى الجزيرة أصوات نساء القرية في المأتم القائم على اتساع الساحة الرملية ..

وكان والد الصبي قد خرج بقاربه للبحث في منطقة المياه العميقة ثم عاد في المساء وسمع من الصيادين أن الزنجي مسعود الطبال رأى الجثة داخل الكهف المعشب على يمين الجرف الناتئ وأنه لمسها بيده ولكنه لم يكن بوسعه أن ينتشلها ضد التيار .. وإثر ذلك قال والد الصبي في مرارة مفاجأة : كذب! .. هذا كله كذب .. إن الجثة ما تزال في المياه العميقة .. أنا تعبت من أكاذيب مسعود الطبال وبقية الصيادين .. دعوا ولدي وشأنه.

وخلال الليل ذبح الفقي في الساحة الرملية كبشاً أدغماً محجلاً بالبياض , ثم أحرق حوافره في إناء فخاري وكتب فوق ضلوعه بالحبر المصنوع من الصوف المحترق .. ونثر الرماد على طول الحاجز الصخري وراء الخليج ..

وعندما أبحر والد الصبي في اتجاه الجزيرة هذا الفجر كان الفقي ما يزال يعمل وحده في طرف الحاجز .. وكانت نساء القرية قد استقبلن بعض المعزيات وجلسن للبكاء معهن فوق الساحة الرملية .. ومدّ الزنجي يده في العتمة وأخرج زجاجة النبيذ من جرابه الجلدي , ثم قال بانكسار: أنا عبد مسكين جبان .. هذا وجه الحق .. وقد رأيت الجثة داخل الكهف المعشب ..

وكان الصيادون قد عثروا على الجثة عند العصر وراء منطقة الأعشاب الواقعة في طرف الحافة الصخرية الشرقية .. وكان الفقي قد وصل إلى الجزيرة بعد الظهر وأعلن أن الصبي مطلق السراح وأنه سينزلق مع التيار .. ثم طلب من الزنجي أن يصحبه في قاربه إلى الحافة الشرقية .. لكن الزنجي أصر على الغوص في منطقة الكهوف وقال له على مسمع من الصيادين إنه لا يصدق كلمة واحدة مما يقوله عن الأسياد وإنه رأى الجثة بنفسه عند مدخل الكهف .. ثم قال له أيضاً إنه لمسها بيده التي سيأكلها الدود ..

وعند العصر سمع الزنجي أن أحد الصيادين عثر على الجثة وراء منطقة الأعشاب وأن السلحفاة الجريحة ظهرت مرتين بجانبه وسبحت أمامه ببطء كأنها تريد أن تقوده إلى مكان جثة الصبي .. ثم استدارت فجأة وأقلعت في اتجاه المياه العميقة ..

وقد قال الفقي إن السلحفاة ظلت في المنطقة حتى تم العثور على الجثة وإن الأسياد حضروا بعد ذلك مجللين بالسواد ومشوا في جنازة الصبي .. "[12]

يعود مسعود في هذا الجزء من الاسترجاع بذاكرته إلى الماضي ليتذكر ما حدث بعد عدم استخراجه لجثة الصبي والذي في معظمه يشير إلى شعوره بالضعف والقهر من كل ما استطاع الفقي تحقيقه خلال أحداث البحث عن الجثة .

يظهر هذا الاسترجاع صورة صريحة لدجل الفقي ومكره وانتهازه للموقف من أجل إظهار نفسه بالفقي صاحب المعتقدات والبركات أمام أفراد مجتمعه فهو من خلال معرفته عن حركات التيارات المائية كان يعلم أن جثة الصبي يمكن العثور عليها في المياه العميقة فاستغل ذلك وأعلنه للعامـــة على أنه قد علمه من خلال ما كان يصنعه أمام الناس أثناء بحثهم عن الجثة وأصر على رأيه الذي خالف به كل الصيادين بمن فيهم مسعود الذي أخرج قميص الصبي من المياه .

فالكل أصر على البحث في الكهوف المعشبة وغاب عنهم أن هنالك في هذه الفترة من الزمن تيارات مائية تحدث في الأعماق وأن هذه التيارات تستطيع أن تحمل معظم ما يكون في طريقها لترمي به في المياه العميقة ، وهو ما حدث بالفعل مما زاد من تألق الفقي وأهميته في نظر أفراد قريته وهو ما يغيظ الزنجي الذي صرح بأنه لا يؤمن بكل ما يصنعه الفقي .

ويقدم هذا الاسترجاع صـــورة عن تعاون أهل القرية في محنتهم رجالاً ونساء، وبعض عادات النساء في العزاء ودورهـــن في الحث على البحث عن الجثة .

كما يبين عدد الأيام التي قضاها الصيّادون في البحث عن الجثة وأثر ما يدور فيها من أقوال وأفعال عن والد الصبي وردة فعله تجاه الصيادين المتعاونين معه وإصرارهم رغم ذلك على عدم تركه والتعاون معه . إضافة إلى ظهور تسمية مسعود بالطبال في هذا الجزء .

إن الصراع الواقع بين مسعود الزنجي والفقي الدجال كان دافعاً إلى تذكر الزنجي لهذه الأحداث التي مضى عليها قرابة الشهر من عمر زمن الرواية . في حين بلغ اتساعها حوالي خمس صفحات من الرواية، ولعل هذا يعود إلى تعدد الأحداث وتنوعها من جهة وورود المشهد الحركي الخاص بالزنجي بين ثنايا الاسترجاع مما زاد في اتساع مساحته .

ويأتي الاسترجاع الثاني تعقيباً على ما حدث بعد جنازة الصبي بين الفقي ومسعود الطبال وأثر ذلك عليه يقول الراوي : " وكان الفقي قد دعاه آن ذاك " عبداً سكيراً تربى على أكل لحم الخنزير في بيوت الإيطاليين ".. وكان قد تشاجر معه في المقهى بعد عودتهم من جنازة الصبي، وقال له على مسمع من روّاد السوق .. إن زنجياً زانياً مثله لا يجوز أن يبقى في سوسة يوماً واحداً .. بل عليه أن يعود إلى الكوخ المصنوع من جريد النخل الذي تركه وراءه في منطقة الصابري لكي يبيع الملح في أزقـــة بنغازي ثم قال له - أيضاً - إن الغربان والعبيد السود نذير من الله بالسوء .. وقد التزم الزنجي الصمت آن ذاك وفضل أن ينسحب من المقهى على أن يتشاجر مع الفقي الذي ظل واقفاً

في وسط حلقة من أبناء عمه المسلحين بالعصي إلى صلاة العشاء وفي تلك الليلة دفن الزنجي رأسه في الوسادة ، وقال بهدوء فيما كانت امرأته تراقبه بفضول عبر العتمة :

ـ مسعود الطبال نذير من الله بالسوء .. مسعود الطبال عبد وحيد مغترب في سوسة "[13]

فهذا الاسترجاع قد جاء عقب حوار بين مسعود وذاته يلوم فيه نفسه على عدم تذكره لحركة التيارات السفلية في موسم الخريف التي حملت جثة الصبي، وذكر أن سبب ذلك يعود إلى كونه عبداً سكيراً.[14]

هنا عاد الراوي بذاكرته إلى الماضي لبيان الأسباب التي أوصلت مسعود الطبال إلى وصف نفسه بتلك العبارة التي كان لها وقع وأثر في نفس الراوي الناقل لهذا الحدث .

ومما يلاحظ في هذا الاسترجاع أن الراوي قد أدخل في سياق خطابه الذاتي عبارة تنتمي إلى خطاب الشخصية أي: من اللغة الاجتماعية لشخصية الفقي وهي العبارة الواردة بين علامتي تنصيص " عبداً سكيراً تربى على أكل لحم الخنزير في بيوت الإيطاليين " .

إن هذه العبارة بهذا الشكل تشير إلى أنها ثنائية الصوت امتزج فيها صوت الراوي بصوت الشخصية لينتج بذلك وجهتا نظر إحداهما لشخصية الفقي والأخرى للراوي المنسجم صراحة مع خطاب الفقي الموجه لشخصية مسعود الطبال الذي وضع نفسه في هذا الموقف بسبب شربه الخمر التي أنسته في ذلك اليوم حركة التيارات السفلية تحت مياه البحر والتي نقلت جثة الصبي من الكهوف إلى المياه العميقة حيث استغل الفقي هذه المعلومة وأظهر نفسه من خلال دجله العالم بمكان الجثة وقد نجح في ذلك.

إن صوت الراوي المنسجم مع صوت شخصية الفقي هنا يشير إلى توافق الراوي مع شخصية الفقي في وصف الزنجي بهذا الوصف واستنكاره في ذات الوقت لشرب مسعود الخمر التي بسببها نجح الفقي وخاب مسعى الزنجي . وفي هذا إعلان صريح إلى ميل الراوي وتعاطفه مع شخصية مسعود الطبال ومواقفه من أفعال شخصية الفقي.

وتسمى هذه التقنية في الرواية بالتهجين، إن "التهجين" بوصفه شكلاً أسلوبياً مميزاً للرواية يسهم بفاعلية في تقوية الطابع البوليفوني لهذا الجنس الأدبي ويكثف بالتالي النشاط الأيديولوجي ـ الحواري داخل الخطاب الروائي . ويقصد بالبوليفونية هنا التعددية اللغوية .[16]

لقد قدم هذا الاسترجاع صورة موجزة عن ما يكنه كل من الفقي ومسعود الطبال لبعضهما، فالفقي المتعالي والمتغطرس الذي يسعى بكل ما يملك إلى تهجير الطبال من القرية مستغلاً في ذلك قبيلته وخبثه، ومسعود الطبال الفقير البائس الوحيد الذي لا سند له إلا الحكمة والصبر وهو في ذات الوقت المكذب صراحة لأقوال وأفعال الفقي في القرية .

وتبين من هذا الاسترجاع بعض من تاريخ شخصية الطبال إضافة إلى أثر وقع كلام الفقي عليه وعمق الجرح الذي سببه له.

بلغ اتساع هذا الاسترجاع سبعة أسطر متفقة مع حجم هذه القصة القصيرة، ويعود مداه إلى حوالي الشهر من زمن الرواية .

وفي الاسترجاع الثالث تعود ذاكرة الراوي إلى ما صنع مسعود الطبال بتكليلة امرأته بعد حواره مع نفسه حول عدم حاجتها إليها ,ويكون هذا حافزاً لتذكر الراوي بعد ذلك لقصة حصول الطبال على هذه التكليلة . يقول الراوي : " وكان الزنجي قد باع تكليلة امرأته لكي يوفر ثمن المحرك .. وكان قد قال لها آن ذاك وهو ينزع الحلقة الذهبية من أذنها .. إن عجوزاً بذيئة مثلها لا يمكن التعامل معها إلاّ بالعصا، ثم دعاها خنفساء تبول في يد من يمسكها وزعم أنه تزوجها لكي ينقذها من الموت جوعاً في بيت والدها بائع الملح .. وعندما أقعت العجوز الزنجية في ركن الغرفة وشرعت تبكي .. دفن وجهه بين يديه وظل يتأملها برهة من بين أصابعه ثم أحس بشيء ينكسر في حلقه وشرع يجاهد لكي يبلع ريقه.."[17] .

يقدم هذا الاسترجاع صورة عن حياة مسعود الطبال في بيته ومقدار ما تعانيه امرأته منه، وتبين هذه الصورة سلطة الرجل المطلقة وهوان امرأته واستسلامها التام لما يريده زوجها الظالم لها بالقول والفعل . كما يقدم الاسترجاع بعضاً من تاريخ حياة امرأة مسعود الطبال في الماضي .

يعد هذا الاسترجاع قريباً في مداه؛ لأن قصة بحث الزنجي عن محرك لقاربه ليست ببعيدة . أما اتساعه فإنه بلغ ثمانية أسطر من الرواية تقريبا تسرد ما حدث في ذلك الموقف دون تفصيل .

ويأتي الاسترجاع الرابع بعد حوار بين مسعود الطبال وامرأته يذكر فيه أن الفقي سيذهب إلى مكة هذا العام . وينتهي المشهد ليعود الراوي بذاكرته إلى أحداث هذه القصة . فيقول :" وكان الفقي قد أعلن ذلك في المقهى بعد أن باع قطعة الأرض المجاورة لمزرعة السيسيلي الأعرج لأحد المستوطنين الإيطاليين الجدد .. وكان قد سافر إلى

بنغازي لكي يقبض ثمنها من البنك ثم عاد في المساء وأخبر الصيادين أنه يزمع أن يؤدي فريضة الحج بالنيابة عن والده المتوفى .. وعندما سأله صاحب المقهى عما إذا كان المرء يستطيع أن يحج نيابة عن والده قبل أن يحج لنفسه مرة واحدة على الأقل , قال له الفقي بدهشة :

ـ ماذا تعني ؟.. إنني سأحج لنفسي أيضاً .. هذا أمر واضح ولكني سأطوف نيابة عن والدي بعد العودة من الرجم .. إن رحمة الله تسعنا معنا .

وفي ذلك اليوم تبادل الصيادون بعض النكات عن الفقي وأقسم صاحب المقهى بالطلاق أنه لم يسمع في حياته قط أن أحداً يستطيع أن يتقاسم حجة مع والده .. فيما أعلن البرغثي أن حجة الفقي غير مقبولة؛ لأنه باع أرضه لأعداء الله .. ولكن الزنجي لم يشارك بكلمة واحدة في هذا الحديث .. وكان يعتبر نفسه غريباً عن سوسة وكان يريد أن يظهر للصيادين أن ما يفعله الفقي لا يخصه ما دام بعيداً بعداً كافياً عن سلاحف البحر. وقد اكتفى آن ذاك بأن قال في اقتضاب :

إن الفقي باع أرضه رخيصة جداً وأن البنك قد خدعه .."[18] .

يحمل هذا الاسترجاع بين طياته الكثير من الدلالات والإيحاءات العميقة تبدأ بأحداث تعامل الفقي صاحب الدين وعنوانه في القرية مع المستعمر وبيع الأرض له بكل بساطة ونسيان ماضيه وتاريخه الاستعماري . ويعكس هذا الاسترجاع ثقافة شخصية الفقي الدينية ونظرة المجتمع الساخرة إليه .والتي توحي هي الأخرى بعدم القدرة على توجيه النقد المباشر لهذه الشخصية .

وتبرز في هذا الاسترجاع شخصية (**البرغثي**) التي حكمت على حجة الفقي وأرجت ذلك إلى بيع الأرض إلى أعداء الله بحسب كلام الشخصية إلا أنه لم يتعرض لحج شخصية الفقي عن والده بأي رأي .

أما مسعود الطبال فقد قدم رأيه بعبارة موجزة لكنها قد تحمل في طياتها معان أخرى يفرض قصد السلامة على الطبال كتمانها .

بلغ اتساع هذا الاسترجاع حوالي الصفحة إلا قليلاً من صفحات الرواية ولكن يمكن أن يكون قريباً؛ لأن خبر حج الفقي لم ينتشر بعد في القرية .

وفي الاسترجاع الخامس يتذكر مسعود الطبال جثة القرش فيشعر بألفة مقززة . هنا يستدعي الراوي ذاكرته ليتحدث عن ذلك فيقول :" لقد عثر عليها الصيادون طافية في المياه الضحلة وراء الحاجز الصخري .. وكانت كريهة الرائحة إلى حد لا يطاق وكانت صغار الأسماك تدور حولها في فضول ودون أن تقترب منها . وقد قال الصيادون

إن القرش قد مات بفعل أحد العبوات الناسفة بعد أن كسرت الهزة العنيفة ظهره ثم حمله التيار إلى المياه الضحلة , وزعم صياد عجوز كان يعمل بشبكته في الخليج أنه رأى القرش يطارد أسماك الشلبة قرب الحاجز منذ بضعة أيام , وإنه لابد قد مات مختنقاً في المياه الضحلة بعد أن قاده طمعه إلى منطقة الأجراف وقد وضع الزنجي يده فوق أنفه واستدار آن ذاك مبتعداً دون أن يقول شياً "[19]

قدم الاسترجاع صورة عن بعض ما يحدث من قصص بحرية نادرة كقصة هذا القرش وتباين وجهات النظر حول وجوده وبعض من طرق الصيد المستخدمة في هذا المكان وما له من أثر على الأحياء البحرية . إضافة إلى تعامل مسعود مع الموقف بسلبية تامة .

جاء هذا الاسترجاع في حوالَي عشرة أسطر من الرواية . أما مداه فإنه يعود إلى بضعة أيام قد مضت من زمن الرواية يمكن تقديرها من خلال ما مضى من أحداث الرواية .

ورد الاسترجاع السادس من ذاكرة الراوي بعد حديثه عن رغبة مسعود الطبال في إذلال الفقي بسبب ما حدث بعد قرار الحكومة بناء كنيسة في سوسة . يقول الراوي :" كان يعرف أن قرار الحكومة ببناء كنيسة في سوسة قد أثار الفقي آن ذاك حتى إنه أعلن في البداية أنه سيطلب من الأهالي مساعدته على هدمها قبل أن يتم البناء ثم عاد فغير رأيه بعد أن جرته الشرطة للتحقيق معه، وأعلن في اليوم التالي أنه سيذهب إلى بنغازي لكي يشكو الأمر إلى نائب الوالي ويستصدر منه إذناً بنقل الكنيسة إلى مكان آخر بعيداً عن القرية لكنه تراجع عن ذلك أيضاً بعد أن عاد من بنغازي واكتفى بالقول إن الحكومة وعدت ببناء جامع جديد فوق التلة المشرفة على الخليج"[20] .

يُظهر هذا الاسترجاع الراوي مطلعاً على بواطن شخصية الزنجي وأفكاره ورغباته . ويسمَى هذا بالسرد الموضوعي؛ لأن الراوي يصف الأحداث وصفاً محايداً كما يراها ويستنبطها في أذهان الأبطال .[21]

يقدم الاسترجاع مجموعة من الأفكار عن شخصية الفقي المتقلبة في مزاجها ورغباتها وتحركاتها المريبة التي تفرض العديد من التساؤلات والتفسيرات لهذه المواقف التي بدأت بشبه ثورة على قرار الحكومة وانتهت بوعد ببناء جامع دون التعرض إلى موضوع الكنيسة .

جاء الاسترجاع في تسعة أسطر من الرواية . اعتمد فيها الراوي على الخلاصة التي تُقدم بها الأحداث تقديماً عاماً بقصد ملء الانقطاعات الزمنية في الرواية . أما مداه

فإنه لا يمكن تحديده على وجه الدقة ولكنه قريب يعود إلى أحداث قرار بناء الكنيسة في سوسة .

وفي الاسترجاع السابع ينقل الراوي ما ذكره مسعود الطبال وجعله يصف السلاحف بأنهن عاهرات . فيقول : "كان الزنجي يعني سلحفاة معينة بالذات .

وكان قد أغمض عينيه تحت معطفه الشتوي ورأى قاربه المدفون في أكوام التفن على شاطئ قريونس ورأى العاصفة والزبد الفضي على قمم الموج ورؤوس النخيل المتمايل على طول القرى، ثم فتح عينيه مستسلماً لحلمه المقزز ورأى سلحفاته تتململ في وسط القارب مقلوبة على ظهرها فيما كان الماء المالح يحرق جراحها العميقة الغور .

لقد فاجأته العاصفة آن ذاك في وسط النهار الخريفي المشرق ومزقت شراعه واضطرته إلى أن يلج بقاربه المياه الضحلة عند الشاطئ ويلتمس ملاذاً مؤقتاً بين أكوام التفن المتيبس آملاً أن تهدأ خلال الليل .. وقد فعل كل ما بوسعه لكي يسهل أمر الانتظار ويحتفظ بقاربه في ملجأ من مياه المطر وعندما سقط رأسه على صدره من فرط التعب وانتفض مذعورا على حافة الدفة كان الفجر قد لاح في السماوات الرمادية العاصفة، وكان البحر يتقدم بإطراب إلى جانب الطريق العام على بعد نصف ميل من الشاطئ وكانت السلحفاة تراقبه مفتوحة العينين من وسط القارب .

ثم ازداد هطول المطر خلال الصباح وبدأ الموج يخترق أكوام التفن في حزم مائية مريبة الارتفاع وبدل الزنجي جهداً خارقاً لكي يحتفظ بسيطرته على القارب ويمنع السلحفاة من أن تكسر عنقها على خشبة الدفة .. وعندما مد يده في إحدى المرات لكي يرفعها إلى الوراء سمع فكيها ينطبقان فجأة على غير هدى .. ثم وصلت إلى أنفه رائحة الكهف العظمى المفتوح أمامه على مِصْرَاعَيْه ورفع رأسه مصعوقاً.. وتذكر لأول مرة منذ بدء العاصفة أنه محجوز دون أن يدري مع وحش جريح ممتلئ بالعداء والغضب في قارب طوله أمتار.

ولقد أحس آن ذاك تجاهها بالرهبة .

ثم شرب بقية زجاجة النبيذ التي اذخرها في اليوم السابق وتذكر أنه إن قرر أن يذبحها الآن فسوف تتعفن قبل أن يصل بها إلى الميناء .. ثم استجمع شجاعته ورماها ببعض النعوت وقرر أن ينتظر حتى تهدأ العاصفة .. وعند الظهر كان أثر النبيذ قد ضاع .. وكان الزنجي يجلس واجماً على حافة القارب ويراقب العينين القبيحتين اللتين ظلتا متثبتتين فوق وجهه بصرامة دون أن تطرفا مرة واحدة .

ثم ازدادت حدة الريح القارصة وطفق الزنجي يرتجف مستشعراً جوعه المقزز . وعندما مد يده متردداً وأطلع كسرة الخبز من جرابه أغمضت السلحفاة عينيها لأول مرة وفتحتها بعد ذلك ببطء فيما كان الموج يرفعها فجأة ويدنيها من حافة الدفة .

لقد كانت جائعة أيضاً وكانت تتسول كسرة الخبز بعينيها وقد راقبها الزنجي مصعوقاً ثم نهض واقفاً حتى كاد أن يسقط في البحر وطفق يلعنها بأعلى صوته .. وعند العصر ارتكب تجاهها حماقة صبيانية لم يكن بوسعه أن ينساها طوال حياته قط . لقد رفع قميصه فجأة وبال فوق رأسها في محاولة مزرية للتغلب على ذعره باختراع نكتة ما ، ثم فغر فمه وشرع يرتجف من التقزز عندما رأها ترفع رأسها الجريح وتلعق بوله بصبر دون أن تحيد بعينيها الصارمتين عنه . وبعد ذلك قال لها معيراً :

ـ الملكة تلعق بول العبد .. الملكة المسعورة تنام على ظهرها وتلعق بول العبد ..

ثم تذكر سلوكه المشين وغمره شعور مفاجئ بالرهبة .. ومدت السلحفاة عنقها تحت وابل المطر وعثرت على المجداف الذي وضعه الزنجي في طريقها لكي يمنعها من الانزلاق في اتجاه الدفة .. ورفع البحر يده في العتمة وقال للصياد :

ـ استيقظ إنها تزحف في اتجاهك ..

وفتح الزنجي عينيه عبر خيوط المطر وسمع مجدافه ينكسر عند فوهة الكهف العظمى .. ثم استشعر الأنفاس الكريهة تلفح قدميه . ورفعهما على مهل فيما كانت السلحفاة تنزلق برأسها على خشب الدفة .. وإذ ذاك دمعت عيناه .. إنه لم يعد يدري الآن لماذا دمعت عيناه .. ولكنه يعرف أنهما كانتا ممتلئتين بالمياه المالحة اللاذعة الطعم عندما رفع حربونه في تلك الليلة العاصفة وغرسه في عنق سلحفاته ثم اتكأ فوقه بثقله وطفق يجأ الجرح العميق الغور حتى رأه ينسرح على الجانبين عبر خيوط الدم اللزج ورأى الرأس ينزلق ببطء ويسبح مبتعداً في مياه المطر .. كان يقاتل دفاعاً عن نفسه ضد ذاك الرأس وحده .. لكن حربونه الغبي قتل السلحفاة ..

وقال الزنجي من تحت معطفه فيما كان ينزلق مع التيار الهادئ عند حافة الجزيرة

ـ لقد كانت عاهرة حقيقية وقد نالت ما تستحقه من العقاب ..

ثم تذكر بدوره أنه خسر حصيلة رحلته من الصيد .. وأنه عاد إذ ذاك إلى السوق خالي الوفاض واضطر إلى أن يغرق قاربه في المرفأ يوماً كاملاً لكي يزيل منه آثار الدماء "[22] .

يبين هذا الاسترجاع خبرة الزنجي في التعامل مع البحر وتقلباته، ويصور حجم ما يعانيه ومقدار صبره في التعامل مع هذه الطبيعة وحده دون رفيق أو صديق يؤنس

وحشته وسط هذه المعاناة التي تمتد من وسط نهار اليوم الأول إلى عصر اليوم الثاني مع إرهاق وإجهاد لا ينتهيان.

كل ذلك كان له أثره في شعور الزنجي بعداوة سلحفاته ورهبته فمن وجودها معه في قاربه .

ويُظهر هذا الاسترجاع استبطان الراوي لشخصية الزنجي في أكثر من موضع والحديث عمّا يشعر به في داخله كرهبته وتقززه في بعض المواقف. ويضاف إلى هذا استبطانه لدواخل السلحفاة والحديث عن شعورها بالجوع وتوسلها لكسرة الخبز بنظراتها من الصياد .

ويختم الراوي الاسترجاع بالحديث عن طريقة الزنجي التي وصفها بالغريبة في التغلب على ذعره التي قد تحمل العديد من الدلالات عن هذه الشخصية التي تلجأ لهذا العمل منذ القدم كشعورها بالدونية والضعف ، فيمنحها هذا التصرف نوع من الشعور بالفوقية والقوة ولعل عبارة الملكة تلعق بول العبد التي ترددها الشخصية في نهاية هذه القصة فيها ما يشير إلى هذا الشعور الذي كانت تعيشه شخصية الزنجي في ذلك الموقف .

حاز هذا الاسترجاع على حوالَي ثلاث صفحات من الرواية، ويعود هذا إلى ما قدمه الراوي من تفصيل دقيق لأحداث هذه القصة ومكان حدوثها الذي كان له دور كبير في تكامل الصورة . حيث قدم الراوي كل هذا موصوفاً بطريقة متشابكة من السرد ومتداخلاً معه فيما يمكن أن يسمى بالصورة السردية[23] التي تعرض الأشياء متحركة مما يؤدي إلى ظهور جل معالم مكان الحدث داخل الرواية .

ولم يحدد الراوي مقدار مدى هذا الاسترجاع إلا أنه يتبين من أحداثه أنه يعود إلى فترة وجود الزنجي في سوسة وعمله بصيد السلاحف وبيعها .

وجاء الاسترجاع الثامن في الرواية حين اعتبر الزنجي أن هبوب العاصفة على غير علم منه هزيمة جزئية . ولبيان السبب يعود الراوي بذاكرته إلى ما حدث في الليلة السابقة فيقول : " فقد تعمد في الواقع أن يتنبأ بالطقس عندما عاد إلى الخليج خلال الليلة السابقة ووقف يراقب السحب المنخفضة على الطريق العام بعد أن ترك سلحفاته وراءه وزعم إذ ذاك أن الريح الشرقي الوضيع الشأن سوف يعود مع شروق الشمس ويواصل لعبته التي بدأها في اليوم السابق لكي يضايق الصيادين على عادته في منتصف الخريف، كان يعرف أن الريح الشرقي لا يخلي مكانه قبل بضعة أيام، وكان يتوقع أن يراه يركض بسحبه المضحكة طوال الأسبوع القادم "[24]

يعكس هذا الاسترجاع خبرة الزنجي بالطقس وتقلباته، كما يقدم فكرة عن بعض الأساليب المتبعة في معرفة الطقس من خلال مراقبة السحب وحركتها بشكل عام .

ومما يلاحظ على هذا الاسترجاع أن الراوي قدّم الريح في صورة إنسان (**وضيع الشأن**)(**واصل لعبته التي بدأها**) (**يضايق الصيادين على عادته**) (**لا يخلي مكانه**) (**يركض بسحبه المضحكة**).وتُسمى هذه بتقنية الواقعية السحرية، وهي نوع من أنواع الرواية الحديثة حيث يهتم هذا النوع من الخيال بالأماكن المفعمة بالألوان والأجواء المحلية، ويحاول فيها الكاتب أن يفضي عليها شيئاً من السحر [25] . فالريح تفكر وتتلاعب وتضايق، والسحب مضحكة . ويتكرر هذا الأسلوب في كثير من مشاهد الرواية . وهو ما زاد من سعة هذا الاسترجاع الذي بلغ ثمانية أسطر من الرواية . أما مداه فإنه يعود إلى ليلة واحدة سابقة من زمن الرواية .

وجاء الاسترجاع التاسع في الرواية بعد ما سأل المزارع الإيطالي صاحبة المطعم عن الذي صنعته بالزنجي، وهل هي تجعل جميع الرجال يفقدون رؤوسهم هكذا ؟ فيعود الراوي بذاكرته إلى الماضي ليبين ما كان يرمي إليه الإيطالي من وراء سؤاله هذا فيقول : " كانا قد أصبحا صديقين في الخفاء، وكانت السنيورة توريستا قد ذهبت مع المزارع الأعرج إلى بيته ليلتين متتاليتين وزعمت لنفسها أنها في الواقع قضت وقتاً طيباً .وأن المزارع رغم عادته المضحكة في دغدغته بطنها وجهله بالحد المقبول للعض قد بدا في نهاية المطاف أفضل قليلاً من القس السابق فيما قرر المزارع بدوره أن السنيورة توريستا تبدو من الداخل عادية إلى حد مريح وأنه يستطيع أن يعتبرها امرأة محتملة بالنسبة لظروف الحب في سوسة، لكن أحداً منهما لم يقل شيئاً للآخر .. لقد ظلا حبيبين سريين وظل المزارع يدعوهما باسم المرابية ويخفي عنها نشأته في سيسيليا , وقد قال لها إذ ذاك :

"إن عبدها المفضل قد فقد رأسه؛ لأنه كان يعتقد أن السنيورة توريستا اختارت الزنجي من دون بقية الصيادين لكي توقعه في حبائلها "[26]

يقدم هذا الاسترجاع صورة عن الحياة الخفية لشخصيات هذه القصة فيظهر المزارع بشخصية رجل ماكر يخفي أصله ويتصنع الحب من أجل مصلحته واستمرار علاقته الموصوفة بالجهل والغشامة في التعامل مع السنيورة التي لم يمنعها موضوع إشباع شهوتها من فعل هذه الرذيلة مع القس السابق الذي لم تمنعه هذه الصفة من ارتكاب هذا الفعل .

إن ما تعكسه أحداث هذه القصة هو المستوى الخلقي لهذه الشريحة من المجتمع التي لا يردعها شي عن تحقيق غاياتها. ولعل في هذا إسقاط من الكاتب على المستعمر وأعماله الشيطانية .

بلغ هذا الاسترجاع تسعة أسطر من الرواية، ذكر فيها الراوي ما جرى في الماضي وذلك بالتركيز على أهمية أحداثه من خلال تقنية الخلاصة التي "تتركز على تكثيف ملفوظات دالة توظف لهذا الغرض وتشتغل سردياً من أجله "[27] ،ولم يفصّل الراوي في أحداث القصة.

أما مداه فإنه يقدر بعودته إلى زمن وجود الزنجي في القرية وتعامله مع شخصية السنيورة .

وورد الاسترجاع العاشر في الرواية بعد ظهور ذكر السلحفاة طافياً في وسط مياه الخليج ليتذكر الراوي قصة ظهوره السابقة التي كانت سبباً فيما يحدث في الزمن الحاضر لمسعود الطبال . يقول الراوي : ((كان الصبي أول من رأه يدخل الخليج منساقاً مع التيار العنيف عند المدخل، وكان قد ذهب لإحضار المجدافين وقرر أن يطارده على مرأى من أصدقائه الذين يعملون معه في سوق السمك زاعما لهم أنه نفس السلحفاة الذي قتل ((**منصور**)) وأنه يستطيع أن يقلبه على ظهره .. وقد تحدث الصبي عنه إذ ذاك باعتباره سلحفاة أنثى ودعاها فكرونة مجنونة قاتلة لكي يقنع أصدقائه بأن "منصور" في الواقع لم يكن نداً لهما.

لكن الصبيان سخروا منه , واتهموه بالحماقة , وأخبروه واحداً بعد الآخر أنه لا يستطيع أن يغمس قدميه في الماء دون أن يتجمد من الخوف ثم اعتراهم الذعر عندما رأوه يخلع ملابسه ويجر مجدافيه الثقيلين عبر نباتات الديس وانطلقوا يركضون إلى المقهى وأخبروا الصيادين وأخبروا الفقي الذي كان يلعب السيزة وراء جدران الجامع.

وكان الفقي أول من أدرك أن السلحفاة ليس أنثى , وقد رآه أول الأمر يسبح ببطء عند مدخل الخليج ,ورأى الصبي يجلس في قارب الزنجي ويلاحقه بمجدافه متكئاً على حافة الدفة , ثم أبتعد ذكر السلحفاة في اتجاه وسط الخليج وأدرك الفقي على الفور أنه كان يتحقق من قارب الزنجي .. لقد توقف بجانبه بالذات دون بقية القوارب المزدحمة على طول المنطقة .. "[28] .

يشير هذا الاسترجاع إلى رغبة عميقة عند شخصية الصبي لإثبات تفوقه على شخصية منصور الغريق والتي أوصلته إلى خوض المياه الباردة من أجل ذلك .

ويبين الاسترجاع خطورة ذكر السلحفاة مقارنة بالأنثى ويتضح هذا من حديث الراوي عن أن الصبي كان يتحدث عنه إذ ذاك باعتباره سلحفاة أنثى ودعاها فكرونة مجنونة قاتلة لكي يقنع أصدقاءه بأن منصور ليس نداً لهما .

ويعكس الاسترجاع صورة عن سوء ظن الفقي بشخصية الزنجي حتى أنه توقف عند قاربه بالذات للتحقق منه دون غيره من القوارب المزدحمة على طول المنطقة .

ولعب الوصف دوراً هاماً في بيان بعض ملامح المكان الذي ظهر من خلال حركة الشخصيات فيه فظهر أثره واضحاً على الصبيان حينما رأوا الصبي يسلكه وانطلقوا يركضون ... , وتظهر له دلالات ومعاني من تواجد الشخصيات فيه كتواجد الفقي خلف جدار الجامع يلعب السيزا، وما في هذا من إيحاءات يمكن أن يستنبطها القارئ "فالاستقصاء يصف كل ما تقع عليه عيون الراوي ولا يدع تفصيلاً إلا ذكر بخلاف الانتقاء الذي يكتفي ببعض المشاهد الدالة تاركاً للقارئ مجالاً للإيحاء"[29] .

بلغ اتساع هذا الاسترجاع حوالَي ثلاثة أرباع الصفحة من الرواية ولعل هذا مرده إلى التفصيل في أحداث قصته التي تعود في مداها إلى وقت قريب مرتبط مباشرة بالمشهد الحالي الجاري في الرواية .

وفي الاسترجاع الحادي عشر كانت شخصية الصبي تقف تراقب العاصفة مستشعرة ندماً عميقاً تجاه ما فعلته بشخصية الزنجي فيعود الراوي بذاكرته إلى الماضي لبيان السبب فيقول: "فقد كذب عليه وراء ظهره وزعم للفقي والصيادين أنه بعثه لكي يربط له قاربه وسط الخليج قبل أن تحطمه العاصفة وأخبره أيضا بأنه يستطيع أن يفعل ذلك؛ لأنه أكثر مهارة من بقية صبيان السوق، ثم زعم لهم أن مسعود الطبال كان ينوي أن يربط قاربه في وسط الخليج منذ الصباح وأنه أقنعه أن يؤجل ذلك حتى ترتفع الريح؛ لأنه كان يعرف أن العاصفة لن تهب على أية حال .

كان الصبي قد اختلق قصة معقدة كاملة التفاصيل عن وصوله إلى قارب الزنجي قرب مدخل الخليج وكان قد اضطر إلى ارتكاب هذه الحماقة بعد أن فاجأه الفقي في القارب واستدرجه إلى الساحة الرملية وطفق يقرص له أذنه ويؤنبه على التعرض لذكر السلحفاة .. لقد قرص له أذنه إذ ذك حتى أرغمه على الاعتراف بأن السلحفاة كان أصفر الرأس، وأن الزنجي طلب منه في الخفاء أن يطارده خارج الخليج"[30] .

يظهر هذا الاسترجاع ثلاثة أمور في شخصية الفقي هي المكر والانتهازية والكذب . فيظهر مكر الفقي من خلال دقة القصة التي اخترعها للصبي وأقنع بها الحاضرين، وتبدو انتهازيته في استغلال خوف الصبي والدفع به إلى الكذب من أجل سلامته، أما

الكذب فهو في فعله وقوله بل والأعظم أنه لم ينج من فعله هذا حتى من الصبي .وكل ذلك من أجل غايته المتمثلة في الكيد لمسعود الطبال .

بلغ هذا الاسترجاع ثلاثة عشر سطراً من الرواية قطع بها الراوي أحداث المشهد الحاضر ليعود بعدها إلى نقل باقي أحداثه، أما مداه فإنه غير محدد وإنما تعود أحداثه إلى ما قبل المشهد الحاضر في الرواية .

أما الاسترجاع الثاني عشر فإنه مغاير لكل قصص الاسترجاعات الماضية في الرواية إنه حلم يقظة عاشته شخصية مسعود الطبال وقد تذكرته الآن عندما هزت رأسها الملوث بالدماء مغالبة رغبة طارئة في الضحك . يقول الراوي : " فقد تذكر أنه جلس هناك مع زوجاته الأربع في انتظار رئيس الجمعية ..

وتذكر أن كل شيء بدأ إذ ذاك على ما يرام , وأنه صفى حسابه كله دون أي خسائر وباح لنفسه بأن رحلته الهائلة الموغلة في القدم قد انتهت في الميعاد بالضبط . وأنه بات في وسعه أن يقف فوق التلة ويوزع قطعا من حبله المدهون بالشحم على أعدائه الجرذان ويترك امرأته تقف على قدميها الخلفيتين وتدعك ساقه بأنفها الأفطس لكي تحصل على قطعة إضافية، لقد بدت نهاية رحلته إذ ذاك عند جدار سوق السمك حقيقة مضحكة واقعة ."[31]

يعكس هذا الاسترجاع حالة الانكسار وخيبة الأمل التي يعيشها مسعود الطبال الآن بعد طول هذه السنين في سوسة بين ضنك العيش وقسوة الحياة وكان خاتمتها ما عاشه من ظلم وتآمر وضرب مدمي من الفقي وأقاربه .

جاءت هذه القصة كمفارقة بين ما كان يحلم به الزنجي عندما كان ينتظر رئيس جمعية القوارب لكي يدفع له الدفعة الأولى من ثمن قارب إضافي جديد عند جدار السوق وبين ما حدث له الآن من ضرب وهوان وإذلال .

والمفارقة الأخرى أن ما حدث له الآن قد وقع بالقرب من ذات المكان الذي عاش فيه هذه الأمنيات والأحلام .

بلغ هذا الاسترجاع تسعة أسطر من الرواية اختصرت أحلام وأمنيات مسعود الطبال في الماضي القريب . أما مداه فإنه يعود إلى ما قبل ما وقع لمسعود الطبال في الزمن الحاضر بقليل .

وورود الاسترجاع الثالث عشر في الرواية عندما كانت امرأة الزنجي تدلك ظهر زوجها وتتحدث إليه حابسة دموعها . فتدخل الراوي ليبين سبب ذلك فيقول:" كان الصبي قد أخبرها بما حدث فوق الساحة الرملية وأخبرها أيضاً أن السلحفاة عبرت مدخل الخليج

أمامه عند الظهر، وأنه ضربها على ظهرها بالمجداف وكان بوسعه أن يقلبها فوراً لولا أن الفقي أرغمه على مغادرة القارب وقرص له أذنه، لكن المرأة الزنجية لم تصدق شيئاً من قصته المعقدة فقد كانت تعرف أن السلحفاة ظهر في الخليج منذ الصباح الباكر، وأنه ليس سلحفاة أنثى، وكانت تعرف أيضاً لماذا يوثق زوجها حربونه بحبل إضافي"[32]

يعكس هذا الاسترجاع صدق ما كان يشعر به الصبي من ندم عقب كذبه على الزنجي ويبين مدى معرفة امرأته بما يحدث في خارج بيتها .

وهي بالرغم من كل الذي تعانيه من مسعود الطبال إلا أنها لا زالت تتألم لمصابه وتحزن من أجله . ويتأكد ذلك فيما يأتي من أحداث الرواية .

بلغ اتساع هذا الاسترجاع حوالَي سبعة أسطر من الرواية اختصرت ما حدث قبل عودة الطبال إلى بيته، أما مداه فإنه يرجع إلى نهاية نهار هذا اليوم الذي ظهر فيه السلحفاة في الخليج منذ الصباح الباكر وما عقبه من أحداث كذب الفقي وضربه للزنجي وإذلاله .

وجاء الاسترجاع الرابع عشر في الرواية عقب حوار بين الزنجي وامرأته عن الفقي وبضاعته الخفية في حانوته ليعود الراوي بذاكرته إلى الماضي لبيان مصدر ما كان يقوله الزنجي من معلومات فيقول: " كان قد سمع ذلك من المرأة الرومية ذات مرة عندما أبدى الفقي معارضته لتزويد مطعمهما بلحم السلاحف ولكنه لم يفهم ما قصدته إذ ذاك ولم يصدقها أيضاً .. لقد عاد فاكتشفه بنفسه فجأة على صخور الطريق الغربي "[33]

يقدم هذا الاسترجاع صورة واضحة عن نفاق الفقي والسبب الحقيقي وراء معاداته وكرهه الشديد للطبال ويبين سبب تكذيب الطبال لكل ما يقوله أو يفعله الفقي فهو سمع بأذنه من الرومية ورأى بعينه ما كان ينكره .

بلغ اتساع الاسترجاع ثلاثة أسطر من الرواية بينت مصدر معلومات الزنجي عن الفقي . أما مداه فإنه لم يحدد في الرواية , ولكنه يعود إلى ضمن فترة تعامل الطبال مع الرومية والتي مازالت مستمرة في حاضر الرواية .

وفي الاسترجاع الخامس عشر يعود الراوي بذاكرته إلى الماضي ليبين الوقت الذي بدأ الزنجي فيه يشعر بالخوف وكان هذا بعد حديثه عن إحساس الزنجي بالخوف . حيث يقول : " كان يحس بالخوف.

لقد بدأ ذلك عندما أمال رأسه ونظر إلى امرأته عبر خيوط الماء الشاحبة الحمرة . وقد بدأ فجأة في لحظة خاطفة واحدة ولكنه تعاظم بسرعة ووصل مداه في هذه اللحظة التالية . وكان قد أدرك إذ ذاك أن امرأته لم تعد تملك مكاناً تذهب إليه حقاً، وأن شيئا ما

قد علقها في عنقه على حين غرة، وأن ذلك قد حدث بيد الله نفسه؛ لأن أحدا غيره لم يكن بوسعه أن يصيبه بدقة إلى هذا الحد "[34] .

يقدم هذا الاسترجاع صورة عن دواخل شخصية الزنجي بعد انتهائه من معركته ضد الفقي وأبناء عمومته التي لم تسلم فيها حتى امرأته من الضرب، إنه شعور ممزوج بالقهر وقلة الحيلة من جهة والرغبة في الانتقام ورد الاعتبار من جهة أخرى إلا أن هذا الأمر قد يضر بزوجته التي نبهته أحداث ما جرى إلى أنها وحيدة لا معيل لها سواه فهي أمانة من الله في عنقه وقد تنبه إلى ذلك حينما كان ينظر إليها عبر الدم الخارج من رأسه ممتزجاً بالماء وشعر بالخوف عليها إن قتل أو أصابه عجز .

وقد بلغ هذا الاسترجاع حوالَي سبعة أسطر من الرواية قدمت خلاصة ما يشعر به الزنجي في ذلك الوقت . أما مداه فإنه قريب يعود إلى المشهد السابق لهذا الحدث .

ثالثاً: الاسترجاعات المزجية: وهي استرجاعات تتوافق مع الاسترجاعات الخارجية في كون نقطة مداها سابقة لبداية الحكاية الأولى ومع الاسترجاعات الداخلية في كون نقطة سعتها مستمرة ومتصلة ببداية الحكاية الأولى .[35] فهي عودة بالذاكرة إلى الزمن الماضي لزمن بداية الرواية للوقوف على أحداث قديمة يستمر فعلها إلى الزمن الحاضر في الرواية .

وقد ورد في رواية (من مكة إلى هنا) عشرة استرجاعات من هذا النوع دارت أحداثها ـ في الغالب ـ حول أمور اعتادتها الشخصيات منذ زمن واستمرت عليها إلى حاضر الرواية .

ففي الاسترجاع الأول يوقف الراوي السرد ليعود بذاكرته إلى الماضي ليتحدث عن عادة مسعود الزنجي في الكذب الذي يضطر إليه في بعض الأحيان يقول الراوي: " وفي اللحظة التالية كان الزنجي يبحث في هدوء عن كذبة صغيرة .. لقد تعود أن يفعل ذلك عن غير قصد عندما يقرر أن يحسم أمراً ما بسرعة كافية وتعود أن يجد بغيته دائماً"[36] . فهذا الاسترجاع يقدم صورة عن قدرة الزنجي في الانتقال من حالة الصراخ التي كان عليها في المشهد السابق لهذا الاسترجاع والذي دار بينه وبين أحد الصيادين إلى حالة الهدوء من أجل التفكير السريع في خلق كذبة صغيرة تمنع عنه بعض الحرج الذي قد يقع فيه .

يبدو أن هذا الاسترجاع بعيدا في مداه والذي لم تحدده الرواية فهو قد يعود إلى زمن سابق لزمن الرواية يستدل عليه من الخبرة التي تراكمت لدى هذه الشخصية في قدرتها على اصطناع الكذبة عن غير قصد منها في زمن سريع حتى صارت عادة لديها .

أما سعته فقد حاز على سطرين من الرواية قدم الراوي خلالهما نبذة مختصرة عن فعل هذه الشخصية وقدرتها في بعض المواقف .

وفي مشهد حواري تدور أحداثه بين مسعود الزنجي وامرأته يعود الراوي خلال مراحل هذا المشهد بذاكرته إلى الماضي ليقف على بعض مما اعتادته هذه الشخصيات ضمن مسيرة حياتها وذلك من خلال ثلاثة استرجاعات كانت على النحو التالي:

ففي الاسترجاع الأول يقف الراوي على ما تعودته شخصية امرأة الزنجي فيقول: "ولكن المرأة لم تتحرك من مكانها وكانت تعرف أن زوجها لا يجرؤ على ضربها خلال الليل، وكانت قد تعودت طوال السنين الماضية أن تصفي جميع معاركها الصغيرة مرة واحدة في ليلة الجمعة بالذات معتمدة على أن أحدا لن يجرؤ على إيذائها في تلك الليلة المقدسة"[37] فيظهر هذا الاسترجاع قدسية ليلة الجمعة عند أفراد هذا المجتمع حتى أن هذه الزوجة تعودت طوال سنين أن تصفي جميع معاركها بالأخص الصغيرة منها في هذه الليلة . وهذا ما كان دافعاً لعودة الراوي بذاكرته إلى الماضي لبيان سبب مصارحة المرأة لزوجها في هذه الليلة بالذات.

يقدم هذا الاسترجاع صورة من صور تعامل الزنجي مع امرأته من حيث أنه كان بإمكانه ضربها في غالب الأوقات إلاّ الليل منها، وقد خبرت المرأة ذلك خلال طول عشرتها مع هذا الرجل . وهذا يعكس مدى هذا الاسترجاع الذي يعود إلى ماضٍ طويل قبل زمن الرواية ويستمر إلى حاضرها . في حين أن اتساعه بلغ حوالَي ثلاثةَ أسطر من الرواية .

ويعود الراوي إلى الحوار الجاري بين الزنجي وامرأته التي كانت تحدثه عن عقوبة من يصطاد سلاحف البحر المريبة بحسب وصفها مما جعل الزنجي يطرق رأسه[38]. وهنا يتوقف المشهد ليعود الراوي بذاكرته إلى الماضي ليبين ما عنته المرأة بالعقاب الذي نال الزنجي بسبب اصطياده لسلاحف البحر فيقول: " كانت امرأته تعيّره دائماً بأنه عاقر وكانت تعتقد أن ذلك عقابه من الله مقابل صيده لسلاحف البحر.. وقد تعودت في البداية أن تطوف على بيوت الفقهاء وتحض له الأحجبة والأعشاب البحرية التي تتركها منقوعة في الماء تحت النجوم طوال الليل ثم ترغمه على شربها في الصباح لكنها عادت وتخلت عن ذلك عندما سمعت أن امرأته السابقة أنجبت خمسة أطفال من زوجها التالي وقالت له في ليلة الجمعة إنها امرأة محظوظة وإن طلاقها منه كان نعمة من الله "[39] .

يظهر هذا الاسترجاع ما كانت تعتقده امرأة الزنجي وتراه سبباً لإصابة زوجها بالعقم وطريقتها في محاولة علاج زوجها بإتباع خرافات الفقهاء وإصرارها على شرب

زوجها لهذا المستحضر. وهذا يعكس مدى تحمل الزنجي لذلك رغبة منه في الإنجاب . ويوضح ما كان من حياة الزنجي في الماضي وقصة زواجه من امرأة أخرى وما حدث لها بعد فراقها من إنجاب خمسة أطفال من زوجها الثاني، وأثر ذلك الخبر على زوجة الزنجي ويأسها من الإنجاب من زوجها الذي صارت تصفه بأنه عاقر .

ويؤكد هذا الاسترجاع على ما جاء في الاسترجاع السابق له من قدسية ليلة الجمعة، ووثوق الزوجة من عدم ضرب زوجها لها في هذه الليلة ويتبين هذا من جرأتها على زوجها بقولها إن زوجته السابقة كانت امرأة محظوظة وإن طلاقها منه كان نعمة من الله .ولعل في هذا اشارة إلى ما كانت تتمنى أن يتحقق لها في الماضي أيام كانت قادرة على الإنجاب .

يعود مدى هذا الاسترجاع إلى زمن سابق في أحداثه لزمن الرواية ولكنه يستمر في أحداثه إلى حاضر الرواية . أما اتساعه فإنه لا يتعدى الثمانية أسطر من الرواية لعبت الخلاصة دوراً في تقديمه .

وفي ذات المشهد يعود الراوي بذاكرته إلى الماضي عقب حوار دار بين مسعود الزنجي وامرأته التي بصقت أثناء المشهد على الأرض ثم نهضت فجأة وانطلقت مسرعة إلى غرفة أخرى فضحك الزنجي بصوت عالٍ ... وكان ذلك الفعل سبباً في استحضار الراوي للماضي ليتذكر ما كان من عادة الزوج عبر السنين الماضية . فيقول: " كان قد تعود أن يترك امرأته تهرب مذعورة إلى الغرفة المقابلة في أي وقت يشاء .. وكان بوسعه أن يجعلها تتجنب الكلام معه عدة أيام بمجرد أن يذكر أمامها إحدى نكاته الوقحة عن المرابطين .. وقد أثار غضبها ذات مرة حتى إنها هربت إلى بيت أهلها عندما قال لها المرابط المجاور الذي ذهبت لكي تعلق راية حريرية فوق ضريحه كان قد مات متأثراً بركلة من حمارته في ظروف مخجلة..

وكان الزنجي يحسن اختراع القصص المضحكة عن أعدائه، وكان يعتبر المرابطين والرياح القبلية وصغار الصيادين الذين يعملون بعبوات "الجيلاطين" أسوأ أعدائه .. وقد تعود أن يقحمهم دائماً في أحاديثه لكي يسرد النكات الجديدة التي أعدها عنهم خلال عمله في قاربه ولكنه تخلى عن هذه العادة بعد أن وصل إلى سوسة واكتفى بترديد بعض نكاته القديمة عن المرابطين وحدهم عندما تضطره امرأته إلى التورط معها في شجار مفاجئ، وقد ظل بوسعه دائماً أن يعود فيكسب ودها مرة أخرى عندما يدس وجهه في الوسادة بجانبها ويمسح بيده على كتفها ويقول لها إنه قد قرر أن يبيع قطعة الأرض التي بنى عليها كوخه القديم في الصابري ويذهبا معاً إلى مكة .."[40]

يقدم هذا الاسترجاع صورة عن مدى اعتقاد شخصية زوجة الزنجي بالمرابطين وأعمالهم لدرجة أنها تصاب بالذعر عند تعرض زوجها لهم بسوء فقد كان يعتبرهم من ضمن أسوأ أعدائه مع رياح القبلي وصغار الصيادين الذين يعملون بعبوات الجيلاطين .

ويشار هنا إلى لغة التهجين الواردة في خطاب الشخصية المنقول على لسان الراوي والواقع بين علامتي التنصيص (**الجيلاطين**) حيث يشارك الراوي بصوته هنا الشخصية في رفض هذا الفعل .فالخطاب يشير هنا إلى وجهتي نظر إحداهما لشخصية الزنجي والأخرى للراوي .. ويستدل على هذا بعبارة (**أسوأ أعدائه**) الواصفة لأصحاب هذا الفعل إضافة إلى المرابطين ورياح القبلي المتربة حيث خصت لفظة الجيلاطين بعلامتي التنصيص دون غيرها من أعداء الزنجي بحسب الخطاب للدلالة على توافق وجهتي النظر بين شخصية مسعود الزنجي والراوي باعتبار الصيادين الذين يستعملون الجيلاطين في عملهم من أسوأ الأعداء .

ومما يلفت الانتباه في هذا الاسترجاع نكات شخصية الزنجي عن الصيادين والتي توقفت بعد أن وصل إلى سوسة دون أن يذكر السبب وراء ذلك والذي لعله يعود إلى طبيعة المجتمع القروي المنغلق على ذاته بخلاف المجتمع البنغازي المتمدن والمنفتح على الجميع والذي يتقبل هذه النكات بروح مرحة وعفوية .

ويشير الاسترجاع إلى طريقة شخصية مسعود الزنجي في كسب ود زوجته وأثر فكرة الذهاب إلى مكة عليها. ومما أضافه الاسترجاع هنا هو الإعلان عن قطعة الأرض التي لا زالت تمتلكها شخصية الزنجي في بنغازي رغم فقرها الشديد .

يرجع هذا الاسترجاع في مداه إلى زمن ماض سابق لزمن الرواية يعود إلى فترة كان فيها الزنجي مقيما في الصابري إلا أن تكرار أفعال الشخصية يمتد منذ ذلك الوقت إلى حاضر الرواية فهو مزيج من الماضي المستمر أثره إلى الحاضر .أما اتساعه فإنه قد بلغ حوالَي ثمانية أسطر من الرواية اختصرت أحداثاً وقعت في سنين .

وفي الاسترجاع الخامس تتوقف أحداث المشهد الدائر حواره بين شخصية مسعود الزنجي وشعاع الشمس ليعود الراوي بذاكرته إلى الماضي ليبين أن عادة مسعود في إجراء مثل هذا الحوار ليست بجديدة عليه فيقول: " كان قد تعود أن يتحدث مع شعاع الشمس وأحياناً أيضاً مع حربونه القديم الذي يربطه بجانبه على طول القارب، وكان قد تعلم من صيادين السمك الإيطاليين الذين عمل معهم في بنغازي أن الحربون اسمه " ميدزو مارينايو" لأنه يؤدي عمل "نصف بحار" على أي قارب وكان يعامل حربونه

مثل بحار كامل ويقول له عندما يسلطه في عنق إحدى السلاحف: سوف نقتسمها مناصفة .. إنك تستطيع أن تنال حصتك في أي وقت .."[41] .

يتبين من هذا الاسترجاع أن شخصية مسعود الزنجي قد تعودت على هذا النوع من الحوار أثناء تواجدها بمفردها في قاربها، وإنه كانت تُجري في بعض الأوقات حواراً مع حربونها القديم . ولبيان سبب اهتمام الزنجي بهذا الحربون يذكر الراوي ما تعلمه الزنجي في الماضي من صيادين السمك الإيطاليين. وفي هذا إشارة إلى جزء من تاريخ هذه الشخصية في الماضي .

ويجتمع صوت الراوي مع صوت الشخصية في التوافق على اسم الحربون بوضعه بين علامتي تنصيص (**ميدوز مارينايو**) لبيان أن هذه اللفظة هي عبارة عن هجين لصوتين. وكذلك الحال مع جملة (نصف بحار) التي وردت بين علامتي تنصيص يوضح بها الراوي سبب هذه التسمية الإيطالية للحربون والذي ترتفع رتبته عند الزنجي إلى بحار كامل يرى أنه يقاسمه صيده مناصفة .

ومما يجدر ذكره في هذه الرواية هو السرد الخيالي حيث يستخدم الكاتب تقنية الواقعية السحرية التي تضفي على الأماكن والأجواء المحلية شيئاً من السحر .[42] وهو شكل من الرواية يختلط فيها الواقعي بالوهمي. فشعاع الشمس والحربون وغيرهما تدخل في حوار مع الشخصية. وإن كان هذا النوع من الحوار هنا هو أقرب إلى الحوار الداخلي أو الذاتي إلا أنه يُعبر عنه بصوت مرتفع تُنفّس به الشخصية عن مكنوناتها وما تشعر به من مرارة الوحدة والكبت وسط مجتمعها. ولعل الكاتب قد قدّم هذا الحدث على شكل مشهد حواري لإبعاد الملل والرتابة السردية عن الرواية؛ لأن كثيراً من أحداث هذه الرواية تدور في أماكن تتواجد فيها شخصية لوحدها ولمدة زمنية ليست بالقصيرة "والراوي بهذه التقانة يمنح نصه روحاً ثانياً إلى جانب الأرواح السردية المسيطرة على النص بفعل ما يحققه من دينامية ورشاقة في تطور الحراك الروائي داخل الرواية "[43] حيث ينقل الحوار المتلقي من رتابة السرد وانتظامه إلى مشهد تتعدد فيه الأصوات وتتنوع فيه وجهات النظر والحركة بمختلف أشكالها .

ويعود هذا الاسترجاع في زمنه إلى أيام تواجد الزنجي في بنغازي ويمتد زمنه إلى حاضر زمن الرواية. أما اتساعه فإنه بلغ حوالَي ثمانية أسطر من الرواية لاعتماد الراوي على الخلاصة في نقل الأحداث .

وفي الاسترجاع السادس يكتشف الزنجي فجأة أنه لم يعد يمتلك سوى سمكة واحدة في صندوق الطعام فيتضايق ويقول إنه سوف يقسمها بين خيطين فيعود الراوي بذاكرته

إلى الماضي ليبين السبب وراء تضايق الزنجي في هذا الموقف فيقول: " وكان الزنجي يبيت خيوطه لأقراش البحر التي ترتاد شاطئ الجزيرة وراء أسراب الشلبة، وكان يستعمل صنانير كبيرة الحجم تعوّد بقية الصيادين أن يلجئوا إلى تغطية معظم أجزائها بخيوط الصوف لكي يوفروا إطعامهم .. ولكن الزنجي لم يكن يحب هذه الخدعة وكان يشعر تجاهها بالخجل "[44].

يقدّم هذا الاسترجاع صورة مختصرة عن الطريقة المتبعة لدى الصيادين عامة والزنجي خاصة في الصيد والتي تعكس حالة الفقر في أسماك البحر حتى يضطر الصيادين إلى خداع سمك البحر بتغليف صناراتهم بخيوط الصوف لكي يوفروا إطعامهم وهو ما كان يضايق الزنجي ويشعره بالخجل .

لم يتجاوز هذا الاسترجاع في اتساعه أربعة أسطر من الرواية قدمت نبذة مختصرة عن الصيد وأحواله في هذه القرية، وبينت أن للزنجي صنعة أخرى غير صنعة صيد سلاحف البحر. أما مداه فإنه يمتد من قبل زمن الرواية ليستمر إلى زمنها الحاضر.

وجاء الاسترجاع السابع عقب حديث الراوي عن أن مسعود الزنجي كان لا يخرج للصيد من أجل أن يحضر السلحفاة لصاحبة المطعم مقابل فرنكاتها؛ لأنه كان يعتقد أن ذلك لا يليق بصياد حقيقي مثله .. ولبيان سبب هذا الاعتقاد لدى الزنجي يعود الراوي بذاكرته إلى الماضي فيقول: " لقد تعود أن يخرج إلى البحر لكي يحضر للناس ما يرغبون في استبداله ببعض النقود، وتعود أن يحضر لهم ما يحتاجونه بالضبط ويتركهم يضعونه في سلالهم ويولونه ظهورهم بعد أن يطرحوا أمامه فرنكاتهم على اللوح المرمي .. وكانوا يطرحون دائماً فرنكات حقيقية تحمل رأس موسيليني الخالي من الشعر.. وكان الزنجي يعتقد أنهم يصطادونها بطريقة ما كما يصطاد هو سلاحفه ويحضرونها مثله إلى سوق السمك ولكنه لم يكن يعرف كيف يفعلون ذلك ولم يكن يعتبرهم صيادين حقيقيين على أي حال "[45].

يقدّم الاسترجاع صورة عن تعظيم الزنجي لذاته التي يرى أنها لا تخرج إلى الصيد إلا لتلبية رغبات الناس الذين لا يصطاد لهم إلا ما طُلب منه بالتحديد, وكأنما هو إنسان يلبي حاجات المحتاجين إليه .وليس بدلال يستجدي الناس شراء بضاعته .

ويعكس الاسترجاع ثقافة الزنجي حول مصدر النقود ,ونظرته الدونية لم يتصور أنهم يصطادونه بطريقة ما إضافة إلى الاعتقاد العام بأن الفرنكات الحقيقية هي تلك التي تحمل صورة موسيليني الخالي من الشعر بالتحديد .

جاء اتساع هذا الاسترجاع في حوالَي تسعة أسطر اعتمد فيها الراوي على تقديم خلاصة الأحداث كسابقه من الاسترجاعات. أما مداه فإنه يعود إلى الزمن السابق لزمن الرواية واللاحق بزمنها الحاضر .

وفي الاسترجاع الثامن يتحدث الراوي عن سر معاناة الزنجي من آلام ظهره الذي حفّز لتذكر قصة تصلب ظهر الزنجي مرة أخرى عندما كان يجر سلحفاته عبر الشريط الرملي واضطراره إلى أن يستلقي ساكناً يقول الراوي : "كان ظهره سراً آخر .. وكان قد تعود أن يخذله في أوقات الشدة ويطعنه من الخلف مثل أي عدو حقيقي ,ولكن الزنجي لم يكن يفضي بذلك السر لأحد أيضاً، ولم يفض به لامرأته أو للبحر أو للسلاحف أو للصيادين .. كان يكتفي أن يشده بشملته الحمراء وكان يلكزه بقبضته عندما يعقره فجأة من الخلف ويقول له بعناد :

هذه عادة الكلاب على الدوام .. دع البرد ينخر عظامك .. هل تعتقد أن أمرك يهمني ؟..

وكان يعيّره في الخفاء بظهور السلاحف الصلدة ويقول له على انفراد إن السلحفاة التي تمتلك ظهراً عظمياً متماسكاً تستطيع في الواقع أن تقصمه فوق قاربه إلى قطعتين لولا أن الحربون يخف إلى نجدته."[46]

يُظهر هذا الاسترجاع مقدار ما يعانيه مسعود الزنجي من صعوبة ومعاناة في كسب رزقه إلا أنه يكابر آلامه ويكتم سرها حتى عن أقرب الناس إليه . ومع ذلك فإنه يعترف بينه وبين نفسه بضعفه الشديد الذي لا يجد منجداً له إلا حربونه الذي يعكس الحديث عنه مقدار أهميته عند هذا الصياد .

ويذكر الاسترجاع شيئاً من لوازم الشخصية (الشملة الحمراء) التي كان يستعملها الزنجي بغية التغلب على آلام ظهره الذي كان البرد ينخر عظامه، ولعل في هذا إشارة إلى طول معاناة الشخصية مع هذا الألم ويأسها من علاج ما أفسده تعاقب الزمن حتى أنه صار يتعامل مع آلامه بطريقة ساخرة تمكنه من التصبر والمجالدة فهو رجل يكابر من أجل البقاء.

جاء هذا الاسترجاع في عشرة أسطر لخصت مقدار معاناة الزنجي من آلام ظهره عبر هذه المدة الزمنية التي تمتد في مداها من الزمن الماضي لزمن الرواية وحتى الحاضر الروائي .

وورد الاسترجاع التاسع في الرواية على هيئة تعقيب من الراوي بعد حديثه عن مغالبة الزنجي شعوراً جامحاً بأن يمد يده إلى جانبه ليقرص امرأته في بطنها علامة

على الصلح .فكان ذلك محفزاً لتذكر الراوي تكرار هذا السلوك من شخصية الزنجي فيقول: " لقد كانت تلك العادة الرديئة هي وسيلته الوحيدة لإبداء رغبته في الصلح مع امرأته، وكان لا يستطيع أن يذهب إلى أبعد من ذلك خطوة واحدة"[47].

يقدم الاسترجاع صورة عن مدى علاقة الزنجي بامرأته ومقدار فعله في هذا المجال الذي لا يتعداه عند رغبته في إبداء شيء من المودة لها والتي صارت عشرتها معه عبر الزمن مبنية على الغريزة الفطرية التي تجمع بين الذكر والأنثى وليست المودة والرحمة حتى تحول هذا الفعل من شخصية الزنجي إلى عادة يتبين من خلالها مدى رغبة امرأته في مصالحته ووصاله .

لم يتجاوز هذا الاسترجاع في اتساعه الثلاثة أسطر من الرواية، قدم الراوي من خلالها صورة مختصرة عن عادة الزنجي مع امرأته . في حين أن مداه يعود إلى ماضي قديم سابق ومستمر إلى زمن الرواية الحاضر .

أما الاسترجاع العاشر فإنه بعد سخرية المزارع الرومي من مسعود الزنجي الذي رد عليه بضحكة قبيحة مبتورة مع التزامه بالصمت ترجع الذاكرة بالراوي إلى الماضي ليبين العلة وراء رد شخصية الزنجي على هذه السخرية بهذه الطريقة فيقول: " كان المزارع الأعرج قد تعود أن يمزح معه، وكان يعتقد أن مزاحه يثير الضحك حقاً، وأن نكاته الغريبة ذات الطعم السيسلي الفج تبدو أكثر خفة عندما تجد موضوعاً مدهشاً مثل الزنجي الحالك السواد ولكن الزنجي كان يحس بالإهانة في الخفاء، وكان لا يفهم نكات المزارع إلا باعتبارها إهانات متعمدة تستحق أن يكسر رأسه من أجلها، غير أنه لم يكن بوسعه أن يكسر رأس أحد الإيطاليين دون أن يتعرض للجلد في وسط السوق، وكانت نكات المزارع أهون قليلا بطريقة ما.."[48].

يشير الاسترجاع إلى تكرار مزاح شخصية الرومي مع الزنجي، كما يشير إلى عباطة الرومي الذي يعتقد أن نكاته -|خاصة المبنية على السخرية من لون الزنجي - تثير الضحك . وفي هذا دلالة على حقارة الرومي أخلاقياً وثقافياً وفكرياً .

قدّم الاسترجاع لمحة إلى بعض من لوازم شخصية الزنجي المتمثلة في لونه الحالك السواد وإلى اتزان عقله في تقييم الأمور حينما يقارن بين موضوعي الرد على نكات الرومي التي يراها مهينة له وموضوع الجلد في السوق لمن يفعل ذلك والذي يبدو أنه سيكون عقاباً شديداً لأمرين :

الأول : لمكانة الإيطالي المستعمر مقارنة بالليبي المستعمَر .

الثاني : لأن العقاب سيكون عبارة عن رسالة إنذار ووعيد واضحة للآخرين .

بلغ الاسترجاع في سعته ثمانية أسطر استخلصت ما يلاقيه الزنجي من الرومي في العديد من المرات. في حين أن مداه يعود إلى ما قبل زمن الرواية ويستمر إلى حاضرها الروائي .

نتائج البحث :

1- كان لاستخدام تقنية الاسترجاع المتوافرة في الرواية دور في امتداد زمن الرواية واتساعه .

2- انقسمت الاسترجاعات في الرواية إلى ثلاثة أنواع : خارجية وداخلية ومزجية.

3- جاءت معظم الاسترجاعات على شكل خلاصة .

4- برزت وجهة نظر الراوي وموقفه من بعض الأمور في الرواية من خلال تقنية التهجين المستخدمة في بعض الاسترجاعات .

5- وردت معظم الاسترجاعات في الرواية من ذاكرة الراوي الذي يصف الأحداث كما يراها أو يستنطقها من أذهان شخصيات الرواية .

6- دارت معظم الاسترجاعات حول شخصية مسعود الطبال، وهي الشخصية الرئيسية في الرواية وامرأته وشخصية الفقي المعادية لشخصية الطبال .

7- قدمت الاسترجاعات صوراً مختلفة عن ملامح الشخصيات وتاريخها وبعض متعلقاتها.

8- تفاوتت الاسترجاعات في اتساعها وذلك بحسب ما تطلبته كل قصة منها. في حين كان مداها ــ في الغالب ــ غير محدد بنقطة معينة إلا أنه يمكن أن يقدّر من خلال ربط الأحداث ببعضها في الرواية.

9- أسهمت الاسترجاعات كثيراً في تنوّع المكان الروائي وظهوره بأشكال مختلفة في الرواية .

الهوامش:

1- بنية التشابه بين المؤلف وشخصياته الروائية (دراسة نقدية) عبد الرحمن عمار، منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق 2007, ص : 106 .
2- خطاب الحكاية، جيرار حينيت, بحث في المنهج، تر. محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي، عمر حلبي، المجلس الأعلى للثقافة، ط . الثانية 1977 .ص: 61 .
3- من مكة إلى هنا .الصادق النيهوم، تالة للطباعة والنشر طرابلس، الطبعة الثانية 2001. ص: .84
4- ينظر الرواية، ص: 84 .
5- الرواية، ص: 112 .
6- الرواية، ص: 58 .
7- الزمن في الرواية الليبية (ثلاثية إبراهيم الفقيه نموذجاً) فاطمة سالم الحاجي، الدار الجماهرية للنشر والتوزيع والإعلام، ط . الأولى 2000، ص: 92 .
8- ينظر خطاب الحكاية، جيرارحينيت، ص: .61
9- الرواية، ص: 35 - 36 .
10- ينظر خطاب الحكاية، جيرارحينين، ص: 61 .
11- الرواية، ص: 9 –11 .
12- الرواية، ص: 11 – 14 .
13- الرواية، ص: 14 ,15 .
14- ينظر الرواية، ص: 14 .
15- الأثر الإيديولوجي في النص الروائي (ثلاثية نجيب محفوظ) د. زياد العُوف، مؤسسة النوري للدعاية والنشر والتوزيع – دمشق، ط. الأولى 1993، مطبعة الدوادي، ص: 225 ، 226 .
16- ينظر الأثير الايديولوجي في النص الروائي، ص: 183 .
17- الرواية، ص: .20
18- الرواية، ص: 31 ,.32
19- الرواية، ص: .36
20- الرواية، ص: 39- 40
21- ينظر بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، د.حميد الحمداني، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء – المغرب، ط. الثالثة 2000 – ص:47 .
22- الرواية، ص: 51 – .54
23- ينظر بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، د.سيزا قاسم، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ص: 117 .
24- الرواية، ص: 77 .
25- ينظر البناء النقدي في الرواية الليبية، الكوني – خشيم والفقيه نموذجاً، د. فاطمة سالم الحاجي، منشورات المؤسسة العامة للثقافة، تعريب : رشا أحمد طاهر، الطبعة الأولى، ص:91 .
26- الرواية، ص: 104 – 105 .
27- جماليات التشكيل الروائي، د. محمد صابر عبيد، د. سوسن البياتي، دار الحوار للنشر والتوزيع سوريا – اللاذقية، ط. الأولى 2008، ص: 219 .
28- الرواية، ص: 117 - 118 .
29- شعرية الخطاب السردي، دراسة محمد عزام، منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق 2005 . ص: 70 .

30- الرواية، ص: 123 - 124 .
31- الرواية، ص: 125 .
32- الرواية، ص: 129 .
33- الرواية، ص: 131 .
34- الرواية، ص: 137 - 138 .
35- ينظر خطاب الحكاية، جيرارجينيت، ص: 60 .
36- الرواية، ص: 16 .
37- الرواية، ص: 24 .
38- ينظر الرواية، ص: 24 .
39- الرواية، ص: 24 - 25 .
40- الرواية، ص: 26 .
41- الرواية، ص: 44 .
42- ينظر البناء النقدي في الرواية الليبية، د. فاطمة سالم الحاجي، منشورات المؤسسة العامة للثقافة الطبعة الأولى 2010 م، ص: 61
43- جماليات التشكيل الروائي، د. محمد صابر عبيد، د. سوسن البياتي، ص:286 .
44- الرواية، ص: 46 .
45- الرواية، ص: 55 - 56 .
46- الرواية، ص: 79 .
47- الرواية، ص: 84 .
48- الرواية، ص: 100.